رواية

بحر المحرّر

فرنسين ريفرز

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

ترجمة: سعيد باز

أوفير

Originally published in English by Multnomah Publishers, Inc in association with Jane Jordan Browne, Multimedia Production Development, Inc., Suite 724, 410 South Michigan Avenue, Chicago, Illinois 60605-1465 under the title:

“Redeeming Love” Copyright © 1991 by Francine Rivers.

International Standard Book Number: 1-57673-816-7

For information: Multnomah Publishers, Inc, P.O. Box 1720, Sisters, Oregon 97759

الحُب المُحرِّر
الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٧
حقوق الطبع محفوظة

Arabic Edition Copyright © 2007 by Ophir Publishing, a division of Jongbloed bv – Holland. All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢ ، عمان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+ فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٥/١٤٦٥
ISBN 90-5950-0598

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الفصل الأول

إنَّما القوَّة وحدها، ولو كانت وليدة الإلهات الغناء،
تُشبِه ملاكاً ساقطاً: تسرُّه الأشجار المقتلعة
والظُّلمة والديدان والأكفان والقبور،
لأنَّها تقتات بأشواك الحياة وثمارها الشائكة،
ناسيةً غاية الشِّعر العظيمة: أنَّه ينبغي
أن يكون صديقاً يُخفِّف أثقال الهموم،
ويسمو بأفكارِ البشر.
(كيتس)

كاليفورنيا، ١٨٥٠

أزاحت آنجِل شقَّة الخَيش عن باب الخيمة قليلاً كي تنظر إلى الشارع الموحل خارجاً. وسرَت في بدنها قُشَعريرة من جرَّاء الهواء البارد الذي هبَّ بعد ظُهر ذلك اليوم حاملاً رائحة النتانة المُصاحِبة لزوال السِّحر.

كانت پيرأدايس قائمةً في الشريان الرئيس بمدينة كاليفورنيا. وكانت أسوأ مكان أمكن أن تتصوَّره آنجِل يوماً: مدينة أكواخ من الأحلام الذهبيَّة بُنيت من أشرعة الخيش البالية المأخوذة من السفن المهجورة؛ مُخيَّماً يقطنه المُشرَّدون والأرستقراطيُّون، المُرحَّلون والمطرودون، المُدلَّلون ماضياً والمُدنَّسون حاضراً. وقد حفَّت الحانات المسقوفة بالخَيش وبيوتُ المقامرة بشوارعَ حقيرة يسودها الحرمان والجشع المكشوفان، والوحشةُ والأوهام الكبيرة. فكانت پيرأدايس مهرجاناً غريباً، اقترن فيه اليأسُ الحالك بالخوف ورائحة الفشل الفاسدة.

ارتسمت على وجه آنجِل ابتسامةٌ ساخرة إذ رأت في إحدى الزوايا رجُلاً يُبشِّر بالخلاص، فيما كان أخوه في زاوية أُخرى — وقُبَّعته مقلوبةٌ في يده — يسلب المنكودين. وحيثما نظرَت، رأت رجالاً يائسين، مَنفيِّين عن ديارهم وعيالهم، طالبين النجاة من الجحيم الذي صنعَته آمالُهم الخائبة بمستقبل زاهر.

هؤلاء الأغبياء أنفسُهم دعَوها مُومساً والتمسوا السُلوان حيث كانوا على يقين بأنَّهم لن يجدوا شيئاً منه عندها. وكانوا يُلقون قُرعة للظفَر بها: أربع أونصات من الذهب تُدفع سلفاً إلى الدُّوقة،

Copyrighted Material
Onkir Printers & Publishers

إلى الدُّوقة، سيِّدة القصر، أي ماخور الخيام التي كانت تُقيم فيه. وكان أيُّ وافدٍ يحوز آنجِل مدَّة نصف ساعة. وكانت النسبة المئويَّة الضئيلة العائدة لها تُحفَظ في خزنة مقفلة يحرسها مارد كارهٌ للنساء اسمُه مَغوان. أمَّا الباقون، أولئك التُعساء الذين يفتقرون إلى ثمن اختبار قُدراتها، فكانوا يقفون غائصين حتّى الرُكَب في بحرٍ من الوحل اسمُه شارع ماين، بانتظار لمحة عابرة يُلقونها على آنجِل "الملاك". وكان الوقت يمر ببطءٍ شديد، وكأن الشهر سنة، في ذلك المكان غير المُناسب إلاَّ للشُّغل. متى ينتهي ذلك؟ كيف أوصلتها جميع خُطَطها اليائسة إلى هنا، إلى هذا المكان المُروِّع القذر الحافل بالأحلام المنهارة.

مضت الدُوقة تقول وهي تصرف بضعة رجال: "لا مزيدَ الآن. أعرف أنّكم كنتم تنتظرون، ولكنَّ آنجِل مُتعَبة، وأنتم تريدونها على أفضل حال، أليس كذلك؟" فتشكَّى الرجال وتوعَّدوا، وتوسَّلوا وساوموا، إلاَّ أنَّ الدُوقة كانت تعرف متى تصل آنجِل إلى حدِّ احتمالها الأقصى. "إنها تحتاج إلى قليلٍ من الراحة. ارجعوا هذا المساء. المشروب على حسابنا!"

تنفَّست آنجِل الصُعداء لانصرافهم، وأفلتت شقَّة باب الخيمة، ثمَّ عادت لتستلقيَ في السرير المُغضَّن، وتُحدِّق بفتورٍ إلى سقف الخيش. كانت الدوقة قد أعلنت عند الفطور صباحاً أنَّ المبنى الجديد كاد يكتمل وأنَّ الصبايا سينتقلن إليه غداً. وكانت آنجِل مستعدَّةً للإقامة داخل جدرانٍ أربعة من جديد. على الأقلِّ عندئذٍ لن تهبَّ عليها رياح الليل الباردة من خلال شقوق الخيش البالي. ولم تكن قد فكَّرت كم تعنيَ لها الجدران الأربعة لمَّا دفعت أُجرة السَّفر في سفينةٍ ذات ثلاثة صَوارٍ متوجِّهة إلى كاليفورنيا. آنذاك، كان كلُّ ما شغل فكرها هو الفرار. فكلُّ ما رأته كان فرصة الحرِّيَّة السانحة لها. وسرعان ما تبدَّد السراب تقريباً لمَّا وصلت إلى المعبر الخشبيِّ وعلمت أنَّها كانت واحدةً من ثلاث نساء على متن سفينة فيها مئة وعشرون شاباً قويّاً ليس في أذهانهم شيءٌ غير المغامرة. وباشرت المومسان السليطتان الشُّغل حالاً، إلاَّ أنَّ آنجِل حاولت أن تبقى داخل حجرتها. وفي غضون أُسبوعين، تبيَّن لها بوضوح أنَّ لديها خياراً واحداً بسيطاً: إمَّا العودة إلى البغاء، وإمّا التعرُّض للاغتصاب. وماذا يهمُّ ذلك حقّاً على أيَّة حال؟ أيُّ شيءٍ آخر تعرفه؟ لعلَّها أيضاً تملأ جيوبها ذهباً، شأنها شأن الأُخريَين. فربَّما عندئذٍ... ربَّما... يتأتَّى لها أن تشتري حرِّيَّتها بما في حوزتها من مالٍ كافٍ.

وصمدت وسط الأمواج العاتية والأنواء، محتملةً طعام السفينة الكريه المصنوع من لحم وخضر وما شابه، والازدحامَ الخانق، وقلَّة اللياقة والاحترام، على أمل أن يكون في حوزتها مالٌ كافٍ عند وصولها ساحل كاليفورنيا، فتبدأ حياةً جديدة. عندئذٍ، وسط الهرجِ والمرج اللذين صحبا دفع السفينة إلى الحوض، حلَّت بها الضربةُ القاضية. ذلك أنَّ المومسَين الأُخريَين هاجمتاها بعنفٍ في

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

حجرتها. ولمَّا استعادت وعيها، كانتا قد نزلتا إلى الشاطئ ومعهما كلُّ مالها وكلُّ ما كان في حوزتها، ولم تتركا لها شيئاً سوى الثياب التي كانت على جسمها. وأسوأُ من ذلك أنَّه لم يبقَ في السفينة حتَّى بحّارٌ واحد ليجذِّف بها إلى الشاطئ.

وبعدما أضناها الضَّرب، تكوَّمت فاقدةً الحسَّ ومرتبكةً في مقدَّم السفينة، حيث لبثت يومين حتَّى جاء الكنَّاسون. ولمَّا فرغوا من أخذ ما شاؤوا من السفينة المهجورة، ومنها هي، ذهبوا بها إلى رصيف المرفأ. وبينما هم يتشاجرون ويتقاسمون غنائمهم، مَشَت مبتعدةً عنهم.

هامت على وجهها بضعة أيَّام، مُغطيِّةً وجهها وشعرها بحرامٍ قَذِر أعطاها إيّاه أحد الرجال. وقد كانت جائعة، ومقرورة، ومقهورة. فالحرِّيَّة كانت حلماً بعيد المنال.

ثمَّ دبَّرت معيشتها بالشُّغل في ميدان پورتسماوث، حتَّى التقتها الدُّوقة وأقنعتها بالتوجُّه إلى بلد الذهب. وقد كانت الدوقة امرأةً جاوزت سنَّ الشباب منذ زمن بعيد، ولكنْ تملَّكها ذكاءٌ شديد في مجال المال والأعمال.

"عندي أربع صبايا أُخَر: فرنسيَّة من پاريس، وصينيَّة باعتني إيّاها آه طُوي، وصبيَّتان تبدوان كما لو كانتا قد جاءتا من إرلنده في قارب بطاطا فارغ، إنَّما قليلٌ من الطعام سوف يُسمِّنهما. آ، أمّا الآن، فأنتِ... أوّلَ مرَّة رأيتُك فيها فكَّرت: ها هنا صبيَّة يمكن أن تصير غنيَّة إذ توفَّرت لها الإدارة الصحيحة. إنَّ صبيَّةً بجمالك يمكنها أن تجمع ثروة هائلة هناك في مخيَّمات الذهب. فأولئك المُعدِّنون الشباب سيستخرجون الذهب من النَّهر ويتقاتلون لوضعه في يدك فوراً."

وبموجب اتِّفاقٍ يقضي بأن تُعطي آنجِل الدُّوقة أكثر من ثمانين بالمئة من مدخولها، وعدتها الدوقة بأن تتولَّى أمر حمايتها من الأذى البدنيّ، وأردفت: "سأُعنى أيضاً بأن تحظَي بأفضلِ ما يتوافر من كساء وغذاء وإواء."

وَجَدت آنجِل هذه السخرية مُضحِكة. فقد هربت من دوك (الدوق) لتقع في يد الدُّوقة. حظُّها ونصيبُها!

كانت الدوقة، رغم إحسانها البادي، طاغيةً جشعة. فقد علمت آنجِل أنَّها كانت ترتشي للتلاعُب بالقُرعة، في حين لا تصل ذرَّة واحدة من غبار الذهب إلى جيوب الصبايا.

أمَّا الحلاوين التي كان الزُّبُن يُقدِّمونها بعد الخدمات الجيِّدة التي تؤدَّى لهم، فكان يتمُّ تقاسُمها بموجب الاتِّفاق الأصليّ. وقد حاولَت ماي لِنغ، جاريةُ آه طُوي الصينيَّةُ، أن تُخبِّئ ذهبها مرَّة، فأُرسِل مَغوان، ذو الابتسامة الفظَّة واليدَين الضخمتين، حتَّى "يكلِّمها كلمتَين!"

كرهت آنجِل حياتها، وكرهت الدوقة، وكرهت مَغوان، وكرهت عجزها البئس. وأكثرَ كلِّ شيء، كرهت الرجالَ لنِشدانهم اللذَّة بلا كلل ولا ملل. فكانت تُعطيهم جسدها، ولكنْ لا ذرَّةً أُخرى.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

وربَّما لم يكن لديها شيءٌ آخر. إنَّها لا تدري. ولم يبدُ أنَّ ذلك يهمُّ أيّاً منهم. فكلُّ ما رأوه كان جمالها، حجاباً بلا عيب يُغلِّف قلباً من جليد، وقد فُتنوا. إذ نَظروا في عينيها الملائكيَّتين وهاموا.

إنَّما لم تنخدع آنجِل ببوحهم الدائم بحبِّهم لها. فقد كانوا يريدونها مثلما يريدون الذهب في الجداول. كانوا يشتهونها، ويتقاتلون لأجل فرصة للاختلاء بها. فقد تدافعوا وتماسكوا وقامروا وتنازعوا، وصرفوا كلَّ ما لديهم بلا تفكُّر ولا تدبُّر. كانوا يدفعون مالهم كي يصيروا مستعبَدين. وقد أعطتهم ما حسبوا أنَّه النعيم، في حين كانت ترسلهم إلى الجحيم.

وما همَّها ذلك؟ لم يبقَ عندها شيء، ولم تُبالِ. بل إنَّ قوَّةً أقوى من البغض الذي نهشها ظهرت في الإعياء الذي استهلك حيويَّة نفسها. ففي الثامنة عشرة من عمرها، كانت قد سئمت الحياة واستسلمت للواقع الذي أكَّد لها أنْ لا شيء سيتغيَّر أبداً. حتَّى إنَّها تساءلت لماذا وُلِدت أصلاً. وافترضت هذا السبب: لأجل حقِّ الله، تتقبَّله أو ترفضه. وقد كان السبيل الوحيد لرفضه أن تقتل نفسها. وكلَّما واجهت هذا الواقع، وَكلما أُتيحت لها الفرصة، خانتها شجاعتُها.

كانت صديقتُها الوحيدة مومساً هَرِمة مُتعَبة اسمُها لاكي، وقد كانت تميل إلى البدانة بسبب تعطُّشها إلى المُسكِرات. ومع ذلك، فحتَّى لاكي لم تعرف شيئاً عن مكان ولادة آنجِل أو محلِّ إقامتها السابقة، ولا عمَّا حدث حتَّى صارت على الحال التي آلت إليها. أمّا المومسات الأُخريات فقد اعتبرنها منيعةً تماماً. وقد تساءلن جميعاً عنها، غير أنهنَّ لم يطرحن عليها قطُّ أيَّة أسئلة. فإنَّ آنجِل أوضحت جليّاً من البداية أنَّ للماضي حُرمةً لا ينبغي لأحدٍ أن يخرقها، ما عدا لاكي، لاكي السكِّيرة الكتوم التي تكنُّ لها مودَّةً خاصَّة.

كانت لاكي تقضي وقتها سكرانةً. "ينبغي أن تكون عندكِ خُطَط، يا آنجِل. ينبغي أن تأملي بشيءٍ ما في هذه الدنيا."

"آمل بأيِّ شيء؟"

"لا يمكنك أن تعيشي بأيَّة طريقة أُخرى."

"إنَّني أعيش عيشةً لا بأس بها."

"كيف؟"

"لا أنظر إلى الوراء، ولا أنظر إلى الأمام."

"ماذا بشأن الآن؟ عليك أن تفكِّري في الآن، يا آنجِل."

فابتسمت آنجِل بفتور، ومسَّدت شعرها الذهبيَّ الطويل، قائلةً: "الآن غير موجود!"

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

الفصل الثاني

إنَّها تمشي مُجلَّلةً بالجَمال،
كَلَيلة صافية تشعُّ في سمائها النجوم،
ولا تتلبَّد فيها أيَّةُ غيوم؛
وكلُّ ما هو الأفضلُ في الظَّلماء وفي الضياء
يتلاقى في طلعتها وعينيها.
(بَيرُن)

كان مايكل هوُشَع يُفرِغ عربته ذات العجلات الأربع من أقفاص الخُضَر حين رأى صبيَّةً جميلة تسير في الشارع. كانت غاطسةً في السواد كأنَّها أرملة، وإلى جانبها رجل خشن الملامح يتدلَّى مسدَّسُه من خصره. وعلى طول شارع ماين، كفَّ الرجال عمّا كانوا يفعلونه، ونزعوا قبَّعاتهم، وأخذوا يتأمّلونها. ولم تقل هي كلمة واحدة لايِّ شخص، ولا نظَرت يمنةً أو يسرةً، بل كانت تسير برشاقةٍ بادية وحُسنٍ غامر، مُقوَّمة الكتفين، رافعةَ الرأس.

لم يستطع مايكل أن يُزيح عينيه عنها. وكلَّما اقتربت صوبه، تسارعت دقَّات قلبه. فأراد منها أن تنظر إليه، إلاَّ أنَّها لم تنظر. وبعد عبورها أطلق نَفَسه المحبوس، بغير أن يدري حتَّى كونَه حابساً له.

هذه هي، يا عزيزي!

أحسَّ مايكل دفقاً من الأدرينالين يُمازجه الفرح. يا ربّ، يا ربّ!

قال جوزف هُكشايلد، صاحبُ الدُكّان الضخم البنية: "رائعة، أليس كذلك؟" مُتبسِّماً وهو يحمل على كتفيه كيس بطاطا. ثمَّ أضاف: "تلك آنجِل، أجملُ الصبايا غربيَّ جبال روكي، وأجملُهنَّ على الأرجح جدّاً شرقيَّها أيضاً." ثمَّ صعد الدرج ودخل دُكّانه.

كان على كتف مايكل صندوقُ تُفّاح كبيرٌ. "ماذا تعرف عنها؟"

"ليس أكثر ممّا يعرفه الجميع، كما أظنّ. إنَّها تقوم بنزهاتٍ طويلة مشياً. هذه عادةٌ من عاداتها. وهي تفعل ذلك عصر كلِّ اثنين وأربعاء وجمعة، في الوقت نفسه

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

تقريباً." ثمَّ أومأ برأسه نحو الرجال الواقفين على طول الشارع، مضيفاً: "إنَّهم جميعاً يأتون لرؤيتها."

وخطرت لمايكل فكرةٌ قابضة للصدر: "مَن ذلك الرجل الذي يرافقها؟ زوجُها؟"

أجابه ضاحكاً: "زوجها؟ إنَّه أشبه بحارس شخصيّ. اسمُه مَغوان. وهو يحميها من إزعاج أيِّ مُتطفِّل. فلا أحد يقترب منها أكثر من مسافة قدم واحدة إلاَّ بعد دفع ما يتوجَّب عليه."

تجهَّم وجه مايكل قليلاً، ثمَّ رجع إلى الخارج، حيث وقف في مؤخَّر عربته مُحدِّقاً إليها وهي تتوارى. لقد مسَّت وتراً عميقاً في داخل كيانه، إذ أحاطت بها كرامةٌ مأساويَّة جليلة. وفيما صاحب الدُكّان يرفع صندوقاً آخر، سأله مايكل السؤال الذي كان يضطرم في داخله: "كيف يمكنني أن أُقابلها، يا جوزف؟"

ابتسم هُكشايلد ابتسامةً كئيبة قائلاً: "عليك أن تقف في الصف حتَّى يحين دورك. إنَّ الدوقة تُجري قُرعةً منتظمة لترى من يحظى بشرَف لقاء آنجِل."

"أيَّة دوقة؟"

"الدُّوقة التي هناك في الأسفل." وأومأ برأسه نحو الجهة المقابِلة في آخِر الشارع، مضيفاً: "صاحبةُ القصر، أكبر ماخور في پيرأدايس."

أحسَّ مايكل كمن تلقَّى رفسةً شديدة مؤلمة جدّاً. وحدَّق إلى هُكشايلد، إلاَّ أنَّ الرجل لم يُعِره أدنى اكتراث وهو يحمل إلى الداخل صندوق جزر ليُفرِغه في برميل، فيما حمل هو على كتفه صندوق تُفّاح آخر.

يا ربّ! هل أسأتُ الفهم؟ لا بدَّ أنَّ ذلك ما حصل. فلا يمكن أن تكون هذه هي التي عيَّنتها لي.

وقال جوزف له من فوق كتفه: "لقد دفعتُ أُونصة الذهب مرَّةً أو مرَّتين لوضع اسمي داخل القُبَّعة. وكان ذلك قبل أن يتبيَّن لي أنَّ الأمر يتطلَّب أكثر من مجرَّد وضع اسمك في القُبَّعة الصحيحة."

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

أنزل جوزف الصندوق على الأرض بخبطةٍ شديدة. "أهي حمامةٌ مُدنَّسة؟ صبيَّةٌ مثلُها؟" لقد أبى أن يصدِّق ذلك.

"ليست أيَّة حمامةٍ مُدنَّسة بالية، يا مايكل. إنَّ آنجِل بضاعةٌ نادرة حقّاً، على ما أسمع. فقد تلقَّت تدريباً خاصّاً. ولكنَّ يدي غير طائلة لأتحقَّق من ذلك بنفسي. فعندما يكون عندي وَطَر ورغبة، أُقابِل پرِس. إنَّها نظيفة تقضي الأمور ببساطة وصراحة، ولا

تُكلِّف كثيراً من الذهب المكسوب بعَرَق الجبين."

شعر مايكل بحاجة إلى استنشاق بعض الهواء. فرجع إلى الخارج. ولم يتمالك عن إلقاء نظرة إلى الشارع على الصبيَّة الهيفاء المجلَّلة بالسَّواد. كانت عائدةً من طرف الشارع الآخر، وعبرت أمامه ثانيةً، فكانت ردَّة فعله أسوأ هذه المرَّة وأصعب تقبُّلاً.

أفرغ هُكشايلد صندوقاً آخر من اللِّفت، وابتسم مُعَجِّباً وجهه. "تبدو مثلَ ثورٍ تلقَّى للتوِّ ضربة هراوة على رأسه. أو لعلَّك احتجبتَ طويلاً في مزرعتك!"

فقال مايكل بحزم: "لنُسَوِّ حسابنا!" ودلف إلى الداخل حاملاً آخِر صندوق. لقد أراد أن يصرف ذهنه عنها إلى شغله من جديد.

قال هُكشايلد: "سيكون في حوزتك ما يكفي من الذهب بعد سداد الحساب... بل أكثرُ ممّا يكفي." وأفرغ الصندوق، ثمَّ وضعه جانباً قبل أن ينصب ميزانَه على النُّضُد، مُضيفاً: "الخُضَر الطازجة تساوي ثروةً هنا. فهؤلاء الشبّان يقصدون الجداول ويقتاتون بقليلٍ غير الطحين والماء واللحم المقدَّد. ثمَّ يرجعون إلى المدينة ولِثَةُ كلٍّ منهم متورِّمةٌ نازفةٌ ورِجلاه منتفختان، من داء الحَفَر[1]، مُعتقدين أنَّهم يحتاجون إلى طبيب. ولكنَّ كلَّ ما يحتاجون إليه هو وجبات طعام صحّيَّة وشيءٌ من الفِطرة السليمة. فلنرَ ما لدينا هنا! صندوقا تُفّاح كبيران، صندوقان من اللِّفت وصندوقان من الجزر، ستَّة صناديق من القرع، وعشرة كيلوغرامات من لحم الغزلان المقدَّد."

وحدَّد له مايكل ما يطلبه أُجرةً للبضاعة مع شحنها.

"ماذا؟! إنَّك تسلبني."

ابتسم مايكل ابتسامةً خفيفة. فهو لم يكن ساذجاً، وقد أمضى مدَّةً طويلة عامَي ٤٨ و ٤٩ غاسلاً التُّراب والحصى في إناء بحثاً عن الذهب، فكان يعرف ما يحتاج إليه الرجال. صحيحٌ أنَّ الطعام كان مجرَّد جزءٍ ممّا يحتاجون إليه، ولكنَّه كان جزءاً يستطيع هو توفيره.

"ستكسب ضعفَي المبلغ!"

فتح هُكشايلد خزانة الفولاذ وراء النُّضُد، وأخرج منها كيسَين من غُبار الذهب. ثمَّ دفع بأحدهما إلى مايكل فوق النُّضُد، ووزن قسطاً من الكيس الآخر أفرغه في كيسٍ جلديٍّ صغير. وإذ قذف بالكيس الأكبر إلى الخزانة مجدَّداً، أغلقها برفسةٍ وتحقَّق من انغلاقها بواسطة المَسكة.

١ داء الحَفَر: داء ناتجٌ عن نقص فيتامين ج وسوء التغذية، يؤدي إلى إفساد الدم. من عوارضِه الحمّى والتهاب المعدة والأمعاء.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

أفرغ مايكل الذهب في حزامٍ كان قد لفَّه على وسطه، فيما هُكشايلد يراقبه فاغراً فمه.

"لديكَ ما يكفي لقضاء وقتٍ طيِّب هناك. أتودُّ رؤية آنجِل؟ ما عليك إلاَّ أن تذهب وتُكلِّم الدوقة ومعك شيءٌ منه، فتُدخِلك إلى الطابق العلويِّ حالاً."

آنجِل! إنَّ مجرَّد ذِكر اسمها أثَّر فيه. لكنَّه قال: "ليس هذه المرَّة."

ورأى جوزف إطباق حنكه، فأومأ برأسه. كان مايكل هوشع رجلاً هادئاً، ولكنْ لم يكُن يُبدي أيَّ لين. وقد كان في منظره ما حمل الرجال على معاملته باحترام. لم يكن ذلك مجرَّد طول قامته أو قوَّة بدنه، وقد كانا كلاهما لافتَين للنظر، بل كان الثبات الجليّ في حملقته. وكان على يقينٍ بما فعله، حتَّى لو ارتاب العالم كلُّه. وقد أُعجب جوزف به، كما رأى بجلاءٍ تامّ تأثير آنجِل فيه. ولكن إذا كان لا يريد مناقشة الموضوع، فهو يحترم رأيه.

"ماذا تنوي أن تفعل بذلك الذهب كلِّه؟"

"سأشتري به عِجلَي بَقَر."

فقال هُكشايلد مبدياً استحسانه: "جيِّد. ربِّهما سريعاً. فلحم البقر أثمن من الخُضَر."

عبر مايكل بعربته أمام الماخور وهو خارجٌ من المدينة. كان كبيراً وفاخراً. وكان المكان يعجُّ بالرجال — معظمهم من الشبّان بين حليق الوجه وطليق اللحية والشاربَين — وكلُّهم سكارى أو يكادون. وقد كان أحدهم يعزف الكمنجة وبعضُهم يُردِّدون أبياتاً بذيئة على النَغَم، كلٌّ منها أثقلُ من سابقه.

فكَّر مايكل: وهي تُقيم هنا! فوقُ في إحدى تلك الغُرَف، حيث سريرٌ وأشياء أُخرى قليلة. ثمَّ أرخى العِنان لحصانَيه، ومضى في سبيله، متجهِّمَ الوجه كثيراً.

لم يستطع صرف ذهنه عنها، طوال ما بقي من ذلك النهار، وهو راجعٌ من قصبة المدينة إلى واديه. وظلَّت تتراءى له ماشيةً في ذلك الشارع الموحل، فتاةً هيفاء غاطسة في السواد، ذاتَ وجه من حجر، شاحبٍ جميل. تُرى مِن أين هي؟

"آنجِل،" قالها مجرِّباً اسمها على لسانه... مجرَّد تجريب. إلاَّ أنَّه تيقَّنَ، حتَّى فيما هو ينطق باسمها، أنَّ زمن انتظاره قد انتهى.

فقال متثاقلاً: "يا ربّ، يا ربّ! ليس هذا تماماً ما كان في فكري."

غير أنَّه علم أنَّه سيتزوَّج بتلك الصبيَّة على كلِّ حال.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

الفصل الثالث

أستطيع أن أتحمَّل يأسي الخاصّ،
أمَّا رجاءَ شخصٍ آخر فلا.
(وليم والش)

اغتسلت آنجِل ولبست روباً حريريّاً أزرق نظيفاً، ثمَّ قعدت على الجانب السُفليّ من السرير بانتظار قرعة بابها التالية. زبونان آخران بعد، وتنتهي ليلتُها. وقد كان في وسعها أن تسمع ضحك لاكي في الغرفة المجاورة. وكانت لاكي تسترسل في الضحك والمرح حين تسكر، الأمرُ الذي غالباً ما كانت تفعله. وكان في وسع تلك المرأة أن تنسى كلَّ همومها بقنِّينة وسكي واحدة.

وقد حاولت آنجِل مرَّة أن تشاركها في الشرب لعلَّها تنسى همومها أيضاً. فأخذت لاكي تصبُّ كأساً بعد أخرى، وآنجِل تحاول أن تُجاريَها. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتَّى داخ رأسها وجاشت معدتها. فأمسكت لها لاكي نونية المهجع وهي تضحك إشفاقاً عليها. وقالت إنَّ بعض الناس يستطيعون إبقاء الوسكي في جوفهم، وبعضهم لا يستطيعون، وإنَّها تحسب أنَّ آنجِل ممَّن لا يستطيعون. ثمَّ اصطحبتها إلى غرفتها وطلبت منها أن تنام.

تلك الليلة، عندما جاء أوَّل رجُل يقرع الباب، قالت له آنجِل بألفاظ قليلة التهذيب أن ينصرف. فمضى غاضباً إلى الدُوقة وقال لها إنَّه يريد أن يسترجع ذَهَبه. فصعدت الدُوقة، وألقت على آنجِل نظرة واحدة، ثمَّ استدعت مَغوان.

لم تكن آنجِل تُطيق مَغوان، ولكنها لم تخف منه مرَّة. فهو لم يزعجها قطّ، بل إنَّما كان يرافقها في نزهاتها، بغير أن يقول كلمة واحدة، أو يفعَل شيئاً واحداً. وقد اقتصر عمله على التيقُّن بألاَّ يقترب منها أحد خارج القصر. وهي علمت أنَّ ذلك لم يكن لأجل

Copyrighted Material
Sophia Printers & Publishers

حمايتها بمقدار ما كان للحفاظ على مصالح الدُوقة. فقد كان يرافقها للتحقُّق من رجوعها إلى القصر.

لم تُطلع ماي لِنغ أحداً قطُّ على ما فعله مَغوان بها لمَّا أُرسِل إلى غرفتها. ولكنَّ آنجِل رأت نظرات الخوف في عينَي الصينيَّة السوداوين كلَّما بدا مَغوان قريباً. فكان كلُّ ما يحتاج لأنْ يفعله هو أن يبتسم لها حتَّى يشحب وجهُها وتتصبَّب عرقاً. وسخرت منها آنجِل في سرِّها. فإخافتُها تحتاج لأنْ يعمد أيُّ رجُل إلى ما يُجاوز الكلام.

وتلك الليلة، لمَّا دخل مغوان، تنبهَّت آنجِل فقط إلى شكل رجل قاتم واقف فوقها، فقالت: "لن تحصل على ما دفعتَ مالك لأجله." ثمَّ ركَّزت مضيفةً: "أُوه، أهذا أنت؟ اذهب عنّي. لن أذهب اليوم في نُزهة."

أمر بأن يُملأ حوض اغتسالها ماءً. وما إن غادرت الخادمتان، حتَّى انحنى فوقها أيضاً، مبتسماً بمكر. "علمتُ أنَّني سأُضطرُّ عاجلاً أم آجلاً إلى أن أُكلِّمكِ كلمتين." ثم أمسك بها جيِّداً. وإذ صحت، أخذت تكافح، غير أنَّه رفعها وغطَّسها في المياه القارسة. فأخذت تلهث محاولة أن تخرج، إلاَّ أنَّه أمسك برأسها ودفعها تحت الماء. وإذ روّعها ثقل يده الحديديُّ، أخذت تقاوم. ولمَّا تحرَّقت رئتاها طلباً للهواء وكادت تفقد وعيها، سحبها إلى فوقُ وسأل: "أهذا يكفي؟"

فقالت: "يكفي،" بنبراتٍ مُهاجة وهي تشهق الهواء.

ودفعها إلى تحتُ ثانيةً. فانتفضت ورفست وخمَّشت سعياً إلى الإفلات. ولمَّا رفعها ثانيةً، اختنقت بالماء وتقيّأت. فضحك، وعلمَت أنَّه يستمتع بذلك. ثمَّ وقف أمامها، مُباعِداً رجلَيه، ومدَّ يده ليمسك برأسها أيضاً. فثار فيها سخطٌ خبّلها، وسدَّدت إليه لكمةً مباشرةً وثابتة. ولمَّا خرَّ على ركبتيه وهو يئنّ، فرَّت مذعورةً من متناول يده.

وإذ لحق بها من جديد، زعقت. وأمسك بها بشدَّة، فأخذت ترفس وتخمش لاهثةً من الجهد. وقد كانت يده على حنجرتها حين انفتح الباب على وسعه وتهادت الدَّوقة إلى الداخل. ثمَّ سفقت الباب خلفها، وصرخت على كليهما كي يكفّا.

امتثل مغوان لأمرها، إلاَّ أنَّه رمق آنجِل بنظرةِ سوء، قائلاً: "سوف أقتلُكِ. أُقسِم على ذلك."

فقالت الدوقة وقد ثار سخطها: "كفى! لقد سمعت الصُّراخ وأنا على الدَرَج. إذا سمع الرجال، فماذا تعتقد أنَّهم سيفعلون؟"

قالت آنجِل: "سيشنقونه،" واضعةً رجلاً فوق رجل، وضاحكةً عليه. فصفعتها الدوقة،

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

فانكفأت مصعوقة. وقالت الدوقة مُنذِرةً: "ولا كلمةَ بعدُ يا آنجِل!" ثمَّ اعتدلت ونظرت إلى مغوان مجدَّداً، قائلةً: "قلتُ لك أن تَصحّيها يا ابْرَت ، وتُكَلِّمها كلاماً. ذلك كلُّ ما أريد منك أن تفعله. مفهوم؟" ومن ثَمَّ شدَّت حبل الجرس بقوَّة.

انتظر الثلاثة بصمتٍ متذبذب. لقد أخرستِ الصفعة آنجِل. وقد علمَت أنَّ الدوقة بالكاد لجمت شيطانها. وعلمَت أيضاً، بعد نظرةٍ واحدة إليه، أنَّ ثورةً حمقاء أُخرى من جانبها قد تُطلِق له العنان.

ولمَّا سُمِع قرعٌ حَذِر على الباب، فتحته الدوقة فتحةً كافية لتطلب لها قهوة ساخنة وخبزاً. ثمَّ أغلقت الباب وعبرت الغرفة وقعدت على الكرسيّ المستقيم الظهر، وقالت: "لقد أرسلتُكَ، يا ابْرَت، لتقوم بأمر بسيط جدّاً. فافعل فقط ما أقوله لك، لا أكثر. آنجِل على حقّ. فمن شأنهم أن يشنقوك!"

أجاب مغوان: "تحتاج لأنْ تتعلَّم درساً،" ناظراً إلى آنجِل نظرة غضب وتوعُّد. إذ ذاك تبخَّر كلُّ تبجُّحها بالشجاعة، بعدما رأت بكلِّ وضوح أنَّ شيئاً أسود وشرِّيراً ومض في عينيه. وقد أدركت تلك النظرة، إذ كانت قد رأتها على وجه رجُل آخر من حين إلى آخر. لم تكن قد أخذت ابْرَت على محمل الجدّ من قبل، غير أنَّه كان جادّاً بالفعل. وعلمت أيضاً أنَّ الخوف كان آخِر شيء يمكنها أن تُظهره. فمن شأن خوفها أن يُغذِّي تعطُّشه للدماء إلى أن تعجز حتَّى الدوقة عن إيقافه. ومن ثَمَّ باتت ساكتة وساكنة، كفأرةٍ في حُجرها.

نظرت إليها الدوقة طويلاً وقالت: " ستُحسِنين التصرُّف الآن. أليس كذلك يا آنجِل؟"

اعتدلت آنجِل في جلستها على مهل وبادلتها النظر من عينَين رزينتَين ساخرتَين، وقالت: "نعم سيدتي!" وهي ترتعش برداً.

"أعطها مُلاءةً قبل أن تأخذها القُشَعريرة."

فانتزع مغوان مُلاءة عن السرير ورماها إليها. فلفَّت الساتان حول جسمها كأنَّه رداء ملوكيّ، ولم تستجرئ أن تنظر إلى مغوان، وقد استبدَّ بها سخطٌ وخوف بائسان.

ثمَّ قالت الدوقة: "تعالَي إلى هنا، يا آنجِل."

فرفعت آنجِل رأسها ونظرت إليها. ولمَّا لم تتحرَّك بسرعة كافية، أمسك مغوان بقبضةٍ من شعرها الأشقر ونترها لتقف. فصرَّت بأسنانها، رافضة إمتاعه بصراخها، فيما جأر وهو يدفعها دفعاً: "عندما تقول لكِ أن تفعلي شيئاً فافعليه!"

وخرَّت آنجِل على ركبتيها قدَّام الدوقة. فربَّتت المرأة شعرها. وإذا باللُّطف المقصود بعد

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

وحشيَّة مغوان يُبدّد تحدِّي آنجِل.

"آنجِل، عندما تصل الصينيَّة، كُلي الخبز واشربي القهوة كلَّها. سيبقى ابْرَت حتَّى يتأكَّد من ذلك. وحالمَا تنتهين سيُغادِر. أُريد منكِ أن تكوني جاهزة للشُّغل في غضون ساعتين."

وقفت الدوقة وتوجَّهت إلى الباب، وتطلَّعت إلى الوراء قائلةً: " ابْرَت، لا أُريد كدمةً أُخرى واحدة عليها. إنَّها أفضل صبيَّة عندنا."

فردَّ ببرودة: "ولا كدمة!"

وكان عند كلمته. فلم يمسَّها، بل تكلَّم فقط... وما قاله جمَّد الدم في عروقها. فغصبَت نفسها على تناول الخبز والقهوة، عالمةً أنَّه كلمَّا أسرعت في الإتيان عليهما يُسرِع هو في المغادرة.

"ستكونين لي، يا آنجِل. في غضون أُسبوع أو شهر، ستُبالِغين في دفعك للدوقة بعيداً أو كثرة طلباتك منها. وعندئذٍ ستقدِّمك لِيَ على طبقٍ من فضة."

ظلَّت آنجِل بخير منذ ذلك المساء، ولم يزعجها مغوان. غير أنَّها كانت تنتظر وهي عالمةٌ بذلك. وقد رفضت إعطاءه الرضى الذي كانت ماي لِنغ تعطيه إيّاه. فكانت دائماً تبتسم له بسخرية لدى دخوله الغرفة. وما دامت تفعل ما يُقال لها، كانت الدوقة سعيدة ولم يقدر ابْرَت مغوان أن يفعل بها شيئاً.

غير أن الجدران كانت تُطبِق عليها من جديد، أكثرَ كلَّ يوم. وكان الضغط في داخلها يتراكم، والجهدُ للحفاظ على المظهر الهادئ الزائف يستنزف قوَّتها.

فكَّرت: زبون واحد بعدُ الليلة، ثمَّ يُمكنني أن أنام! ثمَّ مدَّت يديها ونظرت إليهما، فإذا بهما ترتجفان. كانت ترتجف كلُّها، فعلمت أنَّها تفقد السيطرة. تظاهرُ أكثر من أن يُحتمَل مُدَّةً أطولَ من أن تُعقَل! هزَّت رأسها: كلُّ ما تحتاج إليه كان أن تنام جيِّداً ليلةً واحدة فتكونَ على ما يُرام في الغد. فقط واحدٌ بعد: هكذا فكَّرت، آملةً أن يقضي وَطَره بسُرعة.

ثمَّ قُرع الباب فنهضت تُجيب. وإذ فتحَت، أدخلتِ الرجُل الواقف خارجاً. كان أطول قامةً وأكبر سنّاً من مُعظَم الزُبُن، ومفتولَ العضل. غيرَ ذلك، لم تُلاحِظ فيه أيَّ شيء خاصّ. إلاَّ أنَّها شعرت... بماذا؟ بارتباكٍ مُستغرَب. بازديادٍ في ارتجافها. كانت أعصابها تتحفَّز وتتوفَّز بحيث لا تكاد تقوى على ضبطها. فحنَت رأسها وتنفَّست ببطء، دافعةً ردَّة فعلها الغريبة إلى الأعماق بكلِّ ما تبقَّى لديها من إرادة ضئيلة.

زبونٌ واحدٌ بعد، وأكون حرَّةً الليلة؟

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

شعر مايكل، رغم سنيه الستِّ والعشرين، كما لو كان فتًى غِرّاً، وهو واقفٌ خارج باب اَنجِل المفتوح في ضوء المصباح الباهت المعلَّق في بهو الماخور. لم يكَد يقوى على التنفُّس، وبات قلبه يخفق بشدَّة.

فقد ألفاها أجملَ بعدُ ممَّا تذكَّر، وأصغر سنّاً. كانت خطوط جسمها النحيف تظهر بوضوح من خلال الرُوب الساتانيِّ الأزرق. وحاول ألاَّ ينظر إلى ما دون كتفيها.

أفسحت له حتَّى يتمكَّن من دخول غرفتها. وكلُّ ما رآه كان سريرها، وقد كان مُسوَّى. إلاَّ أنَّ رؤىً خطرت له تلقائيّاً، فنظر إليها من جديد فاقداً رباطة جأشه. فابتسمت له بفتورٍ ابتسامةً دُنيويَّةً مُغرية. لقد عرفت كلَّ ما خطر في باله، حتَّى ما لم يُرِد وجوده هناك.

"ما متعتك المفضَّلة يا سيِّد؟"

كان صوتُها خفيضاً وناعماً، ومؤدَّباً على نحوٍ مفاجئ، غير أنَّها كانت صريحة جدّاً حتّى أُخذ على حين غِرَّة. ولم يكن ضروريّاً أن تقول أيَّ شيء لتجعله أكثر وعياً لما تفعله في سبيل معيشتها، ولا لانجذابه الجسديِّ الشديد إليها.

ما إن دخل الغرفة، حتَّى أغلقت اَنجِل الباب وأسندت ظهرها إليه. انتظرت أن يجيبها فيما أجرت له تقييماً سريعاً. وتضاءل ارتباكُها. لم يكن مختلفاً جدّاً عن الآخرين، ما عدا كونه أكبر سنّاً بقليلٍ من معظمهم وذا كتفين أعرض قليلاً. لم يكن صبيّاً، غير أنَّه بدا مضطرباً، مضطرباً جدّاً. لعلَّ له زوجةً في مكانٍ ما وهو يشعر بالذنْب. لعلَّ أُمَّه مؤمنةٌ تقيَّة، وهو يتساءل عمَّا تفكِّر فيه بشأن مجيئه إلى مومس. إذاً، هذا الزبون لن يقضيَ عندها وقتاً طويلاً. جيِّد! فكلَّما قصر الوقت، كان أفضل.

لم يدرِ مايكل ماذا يقول. استمرَّ طول النهار يُفكِّر بلقائها، وإذ بات الآن هنا في غرفة نومها، وقف مُبكَماً وقلبه يخفق بشدَّة حتَّى يكاد يقفز إلى حنجرته. كانت فائقة الجمال، وقد بَدَت لاهية. يا ربّ، ماذا الآن؟ إنَّني لا أستطيع تخطِّي مشاعري حتَّى بأفكاري! ثمَّ تقدَّمت نحوه، وكلُّ حركةٍ من حركاتها تجذب انتباهه إلى جسدها.

لامست اَنجِل صدره، وسمعته يكبت نَفَسه. فدارت حوله قائلةً وهي تبتسم: "لا داعيَ لأن تستحي منِّي يا سيِّد. قل لي ماذا تطلب."

فرنا إليها قائلاً: "أنت!"

"أنا لك بجملتي."

Copyrighted Material
Opbir Printers & Publishers

وراقبها مايكل تعبر الغرفة إلى المغسلة. آنجِل (ملاك): اسمٌ على مُسمًّى، إذ بدت دُميةً من الخَزَف الأبيض بلا عيب، زرقاء العينَين، باهتة البشرة، ذهبيّة الشعر. لعلَّ المرمر وصفٌ أفضل. فالخزف يتكسَّر، وهي بَدَت أصلبَ من أن يُصيبَها ذلك... صلبةً جدّاً بحيث آلَمَه النظر إليها. عجباً! إنَّه لم يتوقعَّ أن يشعر بذلك. وما أكثر ما أقلقه تخطِّي الرغبة لديه التي علم أنَّها ستُثيرها فيه. اللهمَّ، أعطني القوَّة كي أُقاوِم إغواءَها!

سكبَت ماءً في إناء خزفيّ، وتناولت صابونة. كلُّ ما فعلته كان رشيقاً ومُثيراً. "هلا تأتي إلى هُنا فأغسلك!"

استطاع أن يحسَّ الحرارة تشبُّ في أجزاء جسده ومعظمُها يصبُّ في وجهه. فسعل وهو يشعر كما لو أنَّ ياقته تخنقه.

وضحكت ضحكةً خفيفة، قائلةً: "أعِدُكَ بأنَّ الأمر لن يؤذيَك."

"لا ضرورة يا سيِّدتي. لستُ هنا لأجل الجنس."

"لا، أنت هنا لدرس الكتاب المقدَّس."

"جئتُ إلى هنا كي أتكلَّم إليكِ."

صرَّت آنجِل بأسنانها. ثمَّ كتمت استياءها، وجعلت حملقتها تندفع بجسارة. فتحرَّك بارتباك تحت تلك النظرة، فابتسمَت وسألته: "أأنت على يقين بأنَّك تريد التحدُّث؟"

"أنا على يقين."

لقد بدا متأكِّداً تماماً. فتنهَّدت والتفتت لتنشِّف يديها. "ليكن ما تريد، يا سيِّد." ثمَّ جلست على حافة السرير مُصالِبةً رجلَيها.

علم مايكل ما كانت تفعله. فقاوم الرغبة الجامحة لتقبُّل الرسالة الواضحة التي ما انفكَّت ترسلها إليه. وكلَّما طال وقوفه صامتاً، أكثر ذهنُه من رسم الصُوَر، وهي عرفت ذلك كما كشفت نظرة عينيها. أكانت تسخر به؟ لا شكَّ في ذلك.

"هل تُقيمين في هذه الغرفة عندما لا تكونين في شُغلك؟"

فأمالت رأسها قائلةً: "نعم. أين كنت تحسبني أُقيم؟ في كوخ صغير أبيض بآخِر طريقٍ في مكانٍ ما؟" ثمَّ ابتسمَت لتخفيف حدة كلماتها. فهي كانت تكره الرجال الذين يطرحون الأسئلة ويتحرَّون.

تفحَّص مايكل محيطها. لا أشياء شخصيَّة معروضة، لا صُوَر على الحائط، لا حُلى زينة على الطاولة الصغيرة المغطَّاة بشرشف مخرَّم في الزاوية، لا ملابس نسوية مرميَّة هنا وهناك. كان كلُّ شيء مرتّباً ونظيفاً وطفيفاً. فأثاث غرفتها خزانةٌ كبيرة متوسِّطة الجودة،

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

ومنضدة جانبيّة، ومصباح كاز، ومغسلة رخاميَّة عليها إبريق ماءٍ من الخزف الصينيِّ الأصفر، وكرسيٌّ مستقيم الظَّهر، والسرير الذي كانت تجلس عليه

سحب مايكل الكرسيَّ من الزاوية، ووضعه قدَّامها، وقعد. كان روبُها الساتانيُّ قد انفرج قليلاً. فعلم إنَّها كانت تُلاعِبه. وقد أخذت تُرجِّح قدمها ببطء كرقّاص الساعة، ستِّين ثانيةً في الدقيقة، ثلاثين دقيقة في نصف الساعة، أي كامل الوقت المُحدَّد له.

يا ربّ، سأحتاج إلى مليون سنة حتَّى أصل إلى هذه المرأة! أأنتَ مُتيقِّن بأنَّ هذه هي التي عيَّنتها لي؟

كانت عيناها زرقاوين لا يُسبَر غورُهما. فلم يستطع أن يقرأ فيهما شيئاً. كانت سُوراً، ومحيطاً لا نهاية له، وسماء ليل ملبَّدة بالغيوم وشديدة الظلام تمنعه أن يرى يده أمام وجهه. فرأى فقط ما أرادت له أن يراه.

"قلتَ إنَّك تريد أن تتكلَّم يا سيِّد، فتكلَّم!"

استولى الحُزن على مايكل. "ما كان ينبغي لي أن آتيَ إليكِ هكذا. كان يجب أن أُدبِّر طريقة أُخرى."

"وهل من طريقةٍ أُخرى."

كيف يمكنه أن يُفهِمها أنَّه مختلفٌ عن الرجال الآخرين الذين يأتون إليها، وهو قد أتى بالطريقة عينِها، ألا وهي الذهب؟ فقد سمع لجوزف وذهب إلى الدوقة، ثمَّ سمع تلك المرأة تقول إنَّ اَنجِل هي سلعة، سلعة فاخرة ثمينة محروسة بإحكام. ادفْع أوَّلاً، ثمَّ تكلَّم. لقد بدا الدَّفع الطريقة الأكثر سهولةً ومباشرةً. ولم يهمَّه السِّعر. وها قد تبيَّن الآن أن الطريقة السُّهلى لم تكنِ الطريقة الفُضلى.

كان ينبغي أن يُدبِّر طريقة أُخرى ومكاناً آخر. فهي مستعدَّة جدّاً للشُّغل، وليست مستعدَّة أبداً للإصغاء. وهو كان يُلفي نفسه ينصرف عن مُبتغاه بسهولة فائقة.

"كم عُمرُكِ؟"

فابتسمت قليلاً وقالت: "أنا كبيرة. كبيرةٌ حقّاً."

وقد أحسن تصوُّر ذلك. فهي لم تكن تتكلَّم عن السنين. وهو شكَّ بأن الكثير قد يُفاجئُها. وقد بدت مستعدَّة لأيِّ شيء. إلاَّ أنَّه أحسّ شيئاً آخر أيضاً ممّا يتعلَّق بها، مثلما حصل له أوَّل مرَّة رآها فيها. فقد كان تحت الطبقة التي تُبديها الآن طبقةٌ أُخرى. يا ربّ، كيف يمكن أن أبلغها؟

وسألته: "كم عمرُكَ أنت؟" رادَّةً سؤاله عليه.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

"ستٌّ وعشرون."

"أكبرُ سنّاً من أن تكون مُعدِّن ذهب. فمعظمهم في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. لم أرَ مؤخَّراً أيَّ رجالٍ حقيقيّين."

أوقفه افتقارُها إلى الدهاء على أرضيَّة أصلب: "لِماذا الاسمُ اَنجِل (أي ملاك)؟ أبسبب منظرِك؟ أم هو اسمُك أصلاً؟"

انطبق فمها قليلاً. إنَّ الشيء الوحيد الذي بقي لها كان اسمها، وهي لم تقُلِ اسمها قطُّ لأحد، ولا حتَّى لدوك. فالشخص الوحيد الذي ناداها باسمها كان ماما، وماما ماتت.

"نادني بأيِّ اسم أردتَه يا سيِّد. فالأمر لا يهمّ." فمجرَّد كونه لا يريد ما دفع مالاً لقاءه لا يعني أنَّها ستُعطيه أيَّ شيء آخر. وتفحَّصها ثم قال: "أعتقد أنَّ اسم 'مارة' يناسبك."

"اسمُ فتاةٍ تعرفها في ديارك؟"

"لا. إنَّه يعني 'مُرَّة'."

عندئذٍ تفرَّسَت فيه، ثمَّ صمتت تماماً. أيَّة لعبة هذه؟ وما لبثت أن رفعت إحدى كتفيها بتراخٍ، قائلةً: "أهذا ما تعتقده؟ حسناً، أحسبُ أنَّ 'مارة' اسمٌ جيِّد شأنه شأن أيِّ اسم سواه." وأخذت تُرجِّح قدمها جيئةً وذهاباً من جديد، معلنةً مرور الوقت ثانيةً فثانية. كم من الوقت مضى على وجوده هنا؟ وكم يبغي لها أن تحتمله بعد؟

ومضى قائلاً: "من أين أنتِ؟"

"من هنا وهناك."

فابتسم يسيراً حيال تكتُّمها المؤدَّب والموحي: "هل من 'هنا وهناك' على وجه التحديد؟"

قالت: "هنا وهناك فحسْب." وتوقَّفت قدمُها، ومالت هي إلى الأمام، ثمَّ أردفَت: "وماذا بشأنك أنت يا سيِّد؟ ما اسمُك؟ أأنت من مكانٍ ما على وجه التحديد؟ ألك زوجة في موضع ما؟ أوأنت خائف أن تفعل ما تريده حقّاً؟"

ها قد وجَّهت إليه سِهاماً كثيرة في آنٍ واحد، ولكنَّه بدل أن يؤخذ على حين غِرَّة شعر بانفراج في نفسه. فهذه الصبيَّة كانت حقيقيَّةً أكثر من تلك التي استقبلته عند الباب.

قالَ: "مايكل هُوشَع. وأُقيم في وادٍ إلى الجنوب الغربيِّ من هنا، ولستُ متزوِّجاً، غير أنَّني سأتزوَّج قريباً."

فعبست منزعجةً. بسبب طريقةٍ تفرَّسه بها. فحدَّةُ نظره أثارت أعصابها. إلاَّ أنَّها سألته:

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

"أيُّ نوعٍ من الأسماء اسمُ هُوشَع؟"

انفرجَت زاوية ابتسامته وقال: "هو اسمُ نبيّ."

ألعلَّه يستغلُّها لإطلاق نكتة؟ "هل تنوي أن تكشف لي مستقبلي؟"

"سوف تتزوَّجين منِّي، وسوف أُخرِجُكِ من هنا."

ضحكت. "حسناً، هذه ثالث مرَّة تُطلَب فيها يدي اليوم. يا له من إطراء زائد!" ثمَّ مالت إلى الأمام ثانيةً وقد هزَّت رأسها، وابتسمت ابتسامةً باردة وساخرة. هل اعتقد أنَّ هذه طريقة جديدة للتعامل معها؟ أيحسبها ضروريَّة؟ "متى تودُّ أن أبدأ بتأدية دوري يا سيِّد؟"

"بعد أن يُطوِّق الخاتم إصبعَكِ. أمّا الآن، فينبغي لي أن أعرفك أفضل قليلاً."

لقد كرهته لاسترساله في اللعبة. يا لإضاعة الوقت، والنفاق، والكذب الذي لا حدود له! لقد كانت الليلة طويلة، ولم يسعفها مزاجها لمسايَرته: "ماذا أقول؟ ما أفعله هو ما أنا عليه. كلُّ ما آل إليه الأمر هو أن تقول لي أنت كيف تريد لي أن أكون. إنَّما كُن سريعاً. كاد وقتك ينتهي."

تبيَّن لمايكل أنَّه أفسد القسم الأكبر من هذا اللقاء الأوَّل. ماذا توقَّع؟ أن يدخل إلى هنا، ويتكلَّم بصراحة، ثمَّ يخرج متأبِّطاً ذراعها؟ لقد بدت كأنَّها أرادت صرفه حالاً. وغضب على نفسه لكونه غبيّاً ساذجاً إلى هذا الحدّ. "إنَّكِ لا تتكلَّمين كلام الحُبّ، يا مارة، وأنا ما جئتُ إلى هنا كي أستغلَّك."

أثار غضبَها بعدُ عمقُ كلماته الثابتُ وذلك الاسم: مارة. فأمالت ذقنها قائلة؟ "طيِّب! أظنُّ أنِّي فهمتُ." ثمَّ وقفت. وكان هو قاعداً فاقتربت إليه كثيراً وراحت تمرِّر يديها الناعمتين في شعره. وقد استطاعت أن تحسَّ توتُّره، وقد أعجبها ذلك.

"دعني أحزر يا سيِّد. أنت تريد أن تتعرَّف بي. تريد أن تكتشف كيف أفكِّر وبما أشعر. وأكثر الكلّ، تريد أن تعرف كيف وصلت صبيَّة حسناء مثلي إلى امتهان شُغلٍ كهذا؟"

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

أغمض مايكل عينيه، وأطبق أسنانه، محاولاً سدَّ الطريق على تأثير ملامستها له.

"افعل ما تُفكِّر في فعله، يا سيِّد."

أبعدها مايكل عنه بحزم. "جئتُ حتَّى أتحدَّث معك."

تفحَّصته بعينين مُقلَّصتَين، ثمَّ أقفلت فتحة رُوبها نتراً، وربطت شرائط الساتان. إلاَّ أنَّها ظلَّت تشعر بالانكشاف أمام تفحُّصه. "لقد قصدتَ الصبيَّة غير الصحيحة. أتريد أن ترى

ماذا يمكنك أن تحوز؟ سأكشف لك." وفعلت ذلك، بلا تحفُّظ. إلاَّ أنَّه لم يتورَّد خجلاً هذه المرَّة. حتَّى إنَّه لم يُبدِ أيَّة ردَّة فعل. إنَّما قال بخشونة:

"أُريد أن أتعرَّف بكِ أنت، لا بما يمكنك أن تعمليه."

"إذا أردتَ المحادثة، فانزل إلى الحانة."

إذ ذاك هبَّ واقفاً، وقال: "امضي معي وكوني لي زوجة!"

فأطلقت ضحكة فظَّة. "إن أردتَ زوجة، فاطلب واحدةً بالبريد، أوِ انتظر قافلة العربات المقبلة حتَّى تعبر الجبال."

واقترب نحوها: "يمكنني أن أوفِّر لك حياةً جيِّدة. لا يهمُّني كيف وصلتِ إلى هنا، ولا أين كنتِ من قبل. تعالَي معي الآن."

فابتسمت بسخرية. "لأجل ماذا؟ مزيدٍ من الأمر عينه؟ انظر! لقد سمعت مثل هذا الكلام كلِّه من مئة غيرك. رأيتَني فأُغرِمتَ بي، والآن لا يمكنك أن تعيش من دوني. يمكنك أن توفِّر لي حياةً جيِّدة. يا له من عَرْض!"

"يمكنني ذلك."

"الأمر كلُّه يؤول إلى النهاية عينها."

"لا، لا يؤول!"

"من وجهة نظري، يؤول. نصفُ ساعة وقتٌ أكثر من كافٍ لأنْ يحوزني أيُّ شخص، يا سيِّد."

"أتقولين لي إنَّ هذه هي الحياة التي تريدينها؟"

"ما دخل ما أريده في أيِّ شيء؟ هذه هي حياتي!"

"لا داعي لأن تكون هذه حياتك. لو كان لك الخيار، فماذا كنتِ تريدين؟"

"منكَ أنت؟ لا شيء."

"من العيشة."

استقرَّت داخلَها كآبةٌ. العيشة؟ عمَّ كان يتكلَّم؟ شعرَت بأنَّ أسئلته هاجمتها بعنف، ودافعت عن نفسها بابتسامة تعالٍ باردة. ثمَّ مدَّت يديها واستعرضت غرفتها البسيطة بأثاثها القليل. "عندي هنا كلُّ ما أحتاج إليه."

"لديكِ سقف وطعام وثياب أنيقة."

قالت باقتضاب: "وشُغل. أُوه، لا تنسَ شغلي. أنا بارعة فيه حقّاً."

"أنتِ تكرهينه."

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

صمتت هنيهةً، باحتراس. "لقد جلبتَ عليَّ واحدةً من ليالي السيّئة!" وتوجهَّت نحو النافذة، حيث أطبقت عينيها وجاهدت لإحراز السيطرة، متظاهرةً بأنَّها تنظر خارجاً. ما خطبُها هذه الليلة؟ ما شأن هذا الرجُل الذي قصد إليها؟ كانت تُفضِّل الخَدَر على جيشان العاطفة هذا. الأملُ كان عذاباً؛ الرجاء كان عدوّاً. وهذا الرجُل كان شوكةً في خاصرتها.

لحق بها مايكل، ووضع يديه على كتفيَها. فأحسَّ انقباضها عند لمسه لها. وقال برقَّة: "تعالي معي إلى بيتي، وكوني زوجتي."

أزاحت اَنجِل يديه عنها هازَّةً كتفيها بشدَّة وابتعدت عنه غاضبةً. "لا... شكراً!"

"ولمَ لا؟"

"لأنِّي لا أُريد أن أُغادِر. هذا هو السبب. أهو سببٌ وجيه كفايةً في نظرك."

"إذا كنتِ لا تريدين أن تذهبي معي، فعلى الأقلِّ دعيني أقترب منك أكثر قليلاً."

أخيراً، ها نحن هنا. "ستُّ خطوات يجب أن تكفي لذلك، يا سيِّد. كلُّ ما ينبغي لك هو أن تُقدِّم قدماً على أُخرى!"

"لستُ أتكلَّم بالأقدام والبُوصات، يا مارة."

تباطأت جميع الأحاسيس في داخلها وهبطت مُدوِّمةً كما لو كانت تنصرف عبر ثقبٍ أسود تحت قديمها. وقالت: "اَنجِل، اسمي اَنجِل. هل فهمتَ؟ اَنجِل! ثمَّ إنَّك تُبدِّد وقتك ونقودك."

"لستُ أُبدِّد شيئاً."

وعادت فجلست على حافة السرير، وزفرت نَفَسها. ثمَّ أمالت رأسها جانباً، ورفعت نظرها إليه مُجدَّداً. "أنت تعرف، يا سيِّد، أنَّ معظم الرجال يكونون صادقين عندما يأتونني. فهم يدفعون مالاً، ويأخذون ما يريدون، ثمَّ يُغادِرون. ثمَّ إنَّ هنالك أقلاّء اَخرين، أمثالك، لا يروقهم أن يكونوا مثل الباقين. ولذلك يقولون لي كم يهمُّهم أمري، وأين الخطأ في حياتي، وكيف يمكنهم إصلاحُها." ثمَّ لَوَت فمها ساخرةً وتابعت: "ولكنْ في نهاية المطاف يتجاوزون كلُّهم ذلك ويكتفون بما يَنشدونه حقّاً."

شهق مايكل نَفَساً. إنَّها لم تتصنَّع في كلامها. لا بأس. فهو يستطيع أن يتكلَّم بصراحة. "لا يُعوزني إلاَّ أن أنظر إليكِ فأتنبَّه إلى جسدي. فأنت تُتقنين تماماً كيف تُوقظِين الرغبات. نعم، إنَّني لأُريدُكِ، ولكنَّك مخطئة بشأن مدى ذلك ومُدَّته."

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

فازدادت اضطراباً بعدُ. "لا ينبغي أن تستاء هكذا. فهكذا همُ الرجال."

"هُراء!"

"أتودُّ إخباري الآن عن أحوال الرجال؟ ذلك شيء أعرف كلَّ ما يتعلَّق به، يا سيِّد. الرجال!"

"إنَّك لا تعرفين شيئاً عنِّي."

فربَّتت السرير قائلةً: "كلُّ رجُل يحبُّ أن يعتقد أنَّه مختلف عن سابقه. يحبُّ أن يحسب نفسه أفضل. تعالَ إلى هنا، فأُريَك تماماً إلى أيِّ مدىً أنت مثلُهم. أم تخشى أن أكون على حقٍّ؟"

فابتسم برقَّة. "ستكونين أكثر ارتياحاً معي في ذلك السرير، أليس هكذا؟" ثمَّ تقدم وقعد على الكرسيّ، بغير أدنى ارتباك، ومال نحوها ويداه متشابكتان بتَراخٍ بين ركبتيه. "لستُ أقول إنِّي أفضل بتاتاً من أيِّ رجُلٍ آخر يأتي إليكِ، بل إنَّما أُريدُ المزيد."

"مِثلَ...؟"

"أُريد منك كلَّ شيء. أُريد حتَّى ما لا تعرفين مجرَّد معرفة أنَّ عليكِ إعطاءه."

"بعض الرجال يتوقَّعون الحصول على الكثير لقاء أونصتَين من غبار الذهب."

"أصغي إلى ما يمكنني تقديمه لكِ."

"لا أرى أنَّ ما تعرضه عليَّ يختلف في شيءٍ عمَّا لديَّ."

إذ ذاك طرق أحدهم الباب مرَّتين.

فاجتاح الفَرَج كِيان آنجِل، ولم يَعنِها أن تُخفي ذلك. فتكلَّفت ابتسامةً وهزَّت كتفيها بلامبالاة. "حسناً، لقد انتهى نصفُ الساعة الذي أردتَه للتحدُّث، أليس كذلك؟" ثمَّ وقفت ومشت مُجاوِزةً إيّاه. وتناولت قُبَّعته من على الكُلاَّب قرب الباب وناولته إيّاها. "حان وقت الانصراف."

بَدَت عليه أمارات الخيبة، إلاَّ أنَّه لم يستسلم مدحوراً. "سوف أعود."

"افعل أيَّ شيء يسرُّك!"

ثمَّ مسَّ مايكل وجهها. "غيِّري فكرَكِ! تعالَي معي الآن. ينبغي أن تكوني أحسن حالاً من هذا."

تسارعت دقَّاتُ قلبها. لقد بدا كمن يقصد ذلك فعلاً. ولكنْ، ألَم يبدُ جوني مُخلِصاً أيضاً؟ جوني، بسحره وسلاسة كلامه. وبعد كلِّ ما قال وفعل، تبيَّن أنَّ كلَّ ما أراده كان أن يمضي بشيء ينتزعه من دُوك ليستعمله هو. وقد كان الفرار هو كلَّ ما أرادته. إلاَّ أنَّهما

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

أخفقا كلاهما، وكان الثمن الرهيب الذي ترتَّب على ذلك أبهظَ بكثيرٍ جدّاً.

أرادت اَنجِل إبعاد هذا الفلاَّح من هناك. "أفضلُ لك أن تصرف نقودك الذهبيَّة في غير هذا المكان. ليس عندي ما تبحث عنه، مهما كان ذلك. جرِّب ماغي. فهي الفيلسوفة." ثمَّ شرعت تفتح الباب.

وضع مايكل راحة يده على الباب. "عندَكِ كلُّ ما أبحث عنه. وإلاَّ فما كنتُ قد شعرتُ بما شعرتُ به لمّا رأيتُك أوَّلَ مرَّة، وما كنتُ لأشعر بذلك يقيناً الآن."

"نَفدَ نصف الساعة المُخَّصص لك."

تبيَّنَ لمايكل أنَّها لا تنوي الإصغاء... هذه المرَّةَ على الأَقل. "سأعود. وكلُّ ما سأطلبه هو نصفُ ساعةِ صدقٍ من وقتك."

إلاّ أنَّها فتحتِ البابَ له قائلة: "يا سيِّد، خمسَ دقائق بعدُ فتُضطَرَّ إلى الفرار وأنت تركض ركضَ إبليس!"

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers